مشكلة خلق القرآن
المضمون العقدي والمنظور السياسي

دكتور عماد الدين محمد مصطفى رجب

تمهيـــيد :

نشأة المسألة تطورها :

لم تثر مسألة من مسائل علم الكلام ، ما أثارته هذه المشكلة،حتى أن بعض الباحثين يرجع سبب تسمية عـــلم الكلام الى هذه المشـــكلة بذاتهـــا .

ولقد أخذت هذه المشكلة اتجاها سياسيا ، وآخر نظريا ، وتدخلت فيها الدولة ، فأصبحت طرفا من أطراف المشكلة ، واستطار شرار هذه المشكلة حتى طالت علماء المسلمين جميعا .

واذا ما ذهبنا نتقصى البذور الأولى للمشكلة ، وجدنا أنها تكمن فى مواجهة المسلمين لأهـــل الملل الأخرى ، وعلى وجـــه الخصوص — النصارى ، القائلون بأن عيسى « كلمة الله » .

وخير ما يصور هذه المواجهة ما أورده يحى الدمشقى فى كتـــاب وضعه ليدفع به ما جاء فى الاسلام متعارضا مع المسيحية حول شخص السيد المسيح : (اذا قال لك المسلم : ما تقول فى المسيح ؟ فقل لـــه أنه كلمة الله.ثم ليسأل النصرانى المسلم : بم سمى المسيح فى القرآن ؟ وليسكت فلا يتكلم حتى يجيبه المسلم قائلا : كلمة الله ألقاها الى مريم وروح منه ، فان أجاب بذلك فاســـأله : هل كلمة الله وروحه مخلـــوقة أم غير مخلـــوقة ؟ فان قال مخلوقة فيرد عليـــه بأن الله كان اذن ، ولم

تكن له كلمة ولا روح . فان قلت ذلك فسيفحم المسلم لأن من يرى هذا الرأى ، زنديق فى نظر المسلمين)(١) .

وهكذا يصور النص خطورة المسألة .

ولقد اصطدم المسلمون بهذه المشكلة فى أول الأمر ، كما كان شأنهم فى باقى مسائل علم الكلام على مستوى فردى ، يتحرج البعض من الخوض فيها ، ويحلو للبعض الآخر أن يتناولها .

ولقد كان من بين من تناولوا المشكلة ، الجعد بن درهم أيام الدولة الأموية ، حيث أظهر فى عهد هشام بن عبد الملك مقالته فى خلق القرآن .

ولقد كانت الدولة الأموية تكره مثل هذا القول : لذلك قبض عليه الخليفة ، وأرسله الى خالد القسرى ، أمير العراق ، وأمره بقتله فذبحه خالد فى عيد الأضحى ، وقال فى خطبة للناس : « انصرفوا وضحوا ، يقبل الله منكم ، فانى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم فانه يقول : ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ ابراهيم خليلا ، تعالى الله عما يقول علوا كبيرا »(٢) .

لكن الأمر لم يدم على ذلك . فقد تغيرت الدولة ، فكان العباسيون وظهر المعتزلة ، أول مدرسة فكرية ، منظرة ومنظمة لعلم الكلام، واتسع نطاق المملكة الاسلامية، وتلاقت الثقافات المختلفة فى الساحة الاسلامية فتلاقحت ، وحمل المعتزلة لواء الدفاع عن العقيدة الاسلامية وأخذت المشكلة شكلا محددا دقيقا .

والتوحيد يعنى عند المعتزلة التنزيه لذات الله — وهم قد تحرزوا

---

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب — أوليرى ص١٩٢ .
(٢) شرح العيون ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

بالقول فى الصفات مخافة الوقوع فى التعدد والشرك،لذلك فان موقفهم من مسألة خلق القرآن يعود الى التنزيه • فهم حينما قالوا بأن القرآن مخلوق وحادث ، انما قالوا ذلك لنفى تعدد القدماء وانفراد البارى جل وعلا بالقدم وحده • فما هو تخريجهم للمسألة ؟

قالت المعتزلة : اذا كان الله وصفاته وحدة لا تقبل التغير ، فمحال أن يكون القرآن كلام الله على معنى أنه صفة من صفاته ، لأنه لو كان كذلك ، لكان هو وذاته وبقية صفاته شيئا واحدا • ونحن نرى أن فى القرآن ، أمرا ونهيا ، وخبرا ، واستخبارا ووعدا ووعيدا • فهذه حقائق مختلفة ، وخصائص متباينة • ومن المحال أن يكون « الواحد » متنوعا الى خواص مختلفة • وهذه الخواص قد تتضاد ، كالذى بين الأمر والنهى •

واذا كان القرآن كلاما ازليا ، هو صفة من صفات الله ، ترتب على ذلك ، جملة استحالات :

أولها : أن الأمر لا قيمة له ما لم يصادف مأمورا ، فلا يصح أن تصدر « اقيموا الصلاة » الا اذا كان هناك مأمورون بالصلاة،ولم يكن فى الأزل مأمورون مخاطبون ، ومحال أن يكون المعدوم مأمورا ، والأمر من غير مأمور ، بل الكلام كله من غير مكلم(٣) •

ثانيها : أن الخطاب مع موسى عليه السلام ، غير الخطاب مع محمد عليه السلام ، ومناهج الكلامين مع الرسول مختلفة ، ويستحيل أن يكون معنى واحد ، هو فى نفسه كلام مع شخص على معان ومناهج ، وكلام مع شخص آخر على معان ومناهج أخرى ، ثم يكون الكلامان شيئا واحدا ومعنى واحدا • هذا بالاضافة الى أن الخبرين عن أحوال

---

(٣) انظر الارشاد للجوينى ص ٩٩ •

الأمتين مختلفان يخبر عنهما بخبر واحد ؟ • والقصة التى جرت ليوسف وأخوته ، غير القصة التى جرت لأدم ونوح وابراهيم • واذا اختلفت هذه الاختلافات ، استحال أن يكون الكلام صفة لله ، وهو الواحـد فى ذاته وصفاته الذى لا يختلف ، ولا يطرأ عليه اختلاف •

ثالثها : أن المسلمين أجمعوا قبل ظهـور هذا الخـلاف على أن القرآن الكريم كلام الله ، وأتفقوا على أنه سور وآيات وحروف منتظمة وكلمات مجموعة ، وهى مقروءة ومسموعة ، لها مفتتح ومختتم ، وهو معجزة رسول الله • وأجمعت الأمة على أنه بين أيدينا نقرؤه بألسنتنا • ونحسه بأيدينا ، ونبصره بأعيننا ، ونسمعه بأذاننا ، ومحال أن يكون هذا كله وصفا لصفة الله • فالكلام الأولى الذى هو صفة الله،لا يوصف بمثل هذه الصفات •

تلك هى أدلتهم العقليـة •
فماذا عن أدلتهم النقلية ؟

يقـول المعتزلة :

١ ـــ ان الله تعالى يقول :

« واذ قال ربك للملائكة »(٤) • (واذ) ظرف زمان ماض،فيكون قوله الواقع فى هذا الظرف مختصا بزمان معين • والمختص بزمـان محـدث •

٢ ـــ يقـول الله :

« كتاب أحكمت آياته ، ثم فصـلت »(٥) • وهذا دليـل على أن القرآن مركب من الآيات التى هى أجزاء متعاقبة فيكون حادثا •

(٤) البقرة آية ٣٠ •
(٥) هود آية ١ •

٣ ــ يقول تعــالى :

« حتى يســمع كلام الله »(٦) والمسموع حادث ، لأنه لا يكــون الا حرفا وصــوتا ٠

٤ ــ أنه تعالى عبر عن القرآن بقوله :

« انا أنزلناه »(٧) ولاشك أنه لا أنزل فى الأزل ٠

٥ ــ ان القرآن نص على نسخ بعض الآيات بقوله :

« ما ننســخ من آية أو ننسها ، نأت بخــير منها أو مثلهــا »(٨)
ولا يمكن تصور النسخ الا فى الحادث ، لأن القديم ليس عرضة لذلك ٠

تفســير الزمخشرى :

وقالوا اذا اســتحال أن يكون القــرآن وكل الكتب المنزلة قديمة وجب أن نقول أنها مخلوقة لله ٠ فكلام الله تعالى عبارة عن أصــوات وحروف يخلقها الله فى غيره ، فتصل الى النبى عن طريق ملك ونحوه كما قال تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجــاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء »(٩) ٠

فهذه ثلاث طــرق فى الكلام : الوحى والقــذف فى القلب ، وأن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الاجرام من غير أن يبصر الســامع من يكلمه كمــا كلم موسى ، والملائكة ، وأن يرســل الأنبياء والرســل يكلمون أممهم عن الله(١٠) ٠

---

(٦) التوبة آية ٦ ٠
(٧) يوسف آية ٢ ٠
(٨) البقرة آية ١٠٦ ٠
(٩) الشورى آية ٥١ ٠
(١٠) تفسير الكشاف انظر المقدمة ٠

وقال المعتزلة كذلك ، ان القرآن نوع من الكلام الذى يخلقه الله ، وانما سمى كلام الله لأنه خلق الله من غير واسطة ، وهذا هو الفرق بينه وبين كلامنا . فكلامنا وألفاظنا تنسب الينا ، أما القرآن فخلق الله مباشرة ، والحروف التى نكتبها فى المصحف أو ننطق بها من صنعنا ، وانما وجب لها التعظيم ، لأنها دالة على المخلوق لله .

واذن فمعنى كون الله متكلما أنه خالق الكلام وفاعله ، فان الكلام ليس شيئا أكثر من أن يفعل المتكلم فعلا يدل به المخاطب على العلم الذى فى نفسه ، فالله بهذا المعنى متكلم ، أى فاعل ما يدل به المخاطب على ما يريد ، والمفعول والمجعول مخلوق .

ويشير الزمخشرى — وهو من مشايخ المعتزلة — الى كل هذه الأدلة فى خطبة تفسيره (الكشاف) ، فيقول : « الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما ونزله بحسب المصالح منجما ، وجعله بالتحميد مفتتحا ، وبالاستعاذة مختتما ، وأوحاه على قسمين متشابها ومحكما ، وفصله سورا ، وسوره آيات ، وميز بينهن بفصول وغايات وما هى الا صفات مبتدأ ومبتدع ، وسمات منشأ ومخترع ، فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ، ووسم كل شىء سواه بالحدوث عن العدم أنشأه كتابا ساطعا تبيانه ، قاطعا برهانه ، وحيا ناطقا ببينات وحجج قرآنا عربيا غير ذى عوج ... » .

واذا كان هذا هو موقف المعتزلة من مسألة خلق القرآن ، فماذا كان رأى المعارضين ؟

لقد ناهض المعتزلة فى هذه المسألة فريقان :

فالفريق الأول :

يسمون السلف ، ويرون أن الله وصف نفسه بصفات من قدرة وارادة وعلم وكلام وسمع وبصر ، ووصف نفسه أنه على العرش :

وقال « ليس كمثله شيء »(١١) • لذا وجب الايمان بها كما جاءت ولا نتعرض لتأويلها وشرحها ، فنجرى ظواهر النصوص على مواردها وننكف عن تأويلها نفوض معانيها الى الله •

وقالوا أن أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، درجوا على ترك التعرض لمعانيها ، ودرك ما فيها،وهم صفوة الاسلام،والمستقلون بأعباء الشريعة ، حيث كانوا لا يألون جهدا فى ضبط قواعد الملة والتواصى بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون اليه منها • واذ أنصرم عصرهم وعصر التابعين على الاضراب عن التأويل ، كان ذلك هو الوجه المتبع ، فحق على ذى الدين أن يعتقد تنزه البارى عن صفات المحدثين ولا يخوض فى تأويل المشكلات ، ويكل معناها الى الله ، فيجرى آية الاستواء والمجيء وقوله « لما خلقت بيدى »(١٢) وقوله « ويبقى وجه ربك »(١٣) وقوله « تجرى بأعيننا »(١٤) وما صح من اخبار الرسول ، كخبر النزول وغيره على ما ذكروه(١٥) •

والسلف ينكرون الجدل والمراء فى الدين ، والخصومة والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون من دينهم ، ويسلمون للروايات الصحيحة ، ولما جاءت به الآثار التى جاءت بها الثقات ، عدل عن عدله حتى ينتهى ذلك الى الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقولون (كيف) ولا (لم) ، لأن ذلك بدعة(١٦) •

---

(١١) سورة الشورى آية ١١ •
(١٢) سورة ص آية ٧٥ •
(١٣) سورة الرحمن آية ٢٧ •
(١٤) سورة القمر آية ١٤ •
(١٥) انظر أبو المعالى الجوينى فى الارشاد ص ٩٩ وما بعدها •
(١٦) مقالات الاسلاميين ـ الأشعرى ج ١ ص ٣٤٧ •

وقد قالوا : نؤمن بما جاء ، كما جاء ، ولا نتكلم فيما لم يجيء واذا عجزنا فى أنفسنا عن (ما) دائما وعن (كيف) كثيرا ، فكيف نستطيع أن نجيب عن (ما) و (كيف) فى ذات الله وصفاته ؟ .. واذا كان ذلك كذلك ، فلنؤمن بما جاء ، ولنقف عندما جاء ، فلا نبحث فيما اذا كانت صفات الله عين ذاته ولا غير ذاته ، ولا نبحث فى كيف تصدر المحدثات عن القديم ، ولا كيف يتصل علم الله القديم بالمعلومات المحدثة ، ولا نحو ذلك ، فانها فوق عقولنا ، واذ ذاك تكون مجالا للزلل .

من هذا العرض نرى أن جوهر الخلاف بين السلف وبين المعتزلة هو سلطة العقل ومداها وحدودها .

١ ــ فقد رأى المعتزلة أن العقل البشرى قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من اقامة البرهان حتى ما يتعلق بالله ، فلا حدود للعقل الا براهينه ، ولا زلل ولا خطأ متى صح البرهان ، ولهذا استعملوا البراهين فى أدق الأمور وأصعبها وأعقدها ، ففى استطاعة العقل الوصول الى الحق فيها .

هكذا كانت نزعة المعتزلة متجلية فى كل أبحاثهم ، يسيرون وراء البرهان الى نهايته ، ويثيرون أصعب المشاكل وأعقدها ، ويتعرضون لحلها ، فاذا تم لهم حلها أو اعتقدوا بحلها ، تأولوا آيات القرآن على مقتضاها .

٢ ــ وعلى العكس منهم ، كان السلف ، الذين رأوا أن العقل أضعف من ذلك ، وأن استطاعته محدودة بادراك ما يتعلق بشأنه هو أو أقل من ذلك ، وأنه منح القدرة على أن يدرك البرهان على وجود الله والنبوة العامة ونبوة محمد خاصة ، ولم يمنح القدرة على كنه الله

وصفاته • لذا وجب أن نؤمن بما جاء به أنبياؤه ، ولنقف عند ما قالوه دون اثارة لمشاكل لم يأت بها الأنبياء ، ويجب أن نسد الطرق على من يثيرونها ، فان جادلناهم فى شىء ففى بيان خطئهم وفساد طريقتهم•

وحين آثار المعتزلة القول بخلق القرآن قالواهم « القرآن كلام الله،لا نقول مخلوق و لاغير مخلوق » ، فأثار هذه المسألة بدعة لم يقلها النبى عليه الصلاة والسلام ولا صحابته ، فلا نتابعكم فى السير فيها ، ولا نتابعكم فى الجدال والخصومة ونقف عند قولنا : القرآن كلام الله، وهذا فقط ما قال الله فى قرآنه الكريم •

الفريق الثانى :

وثمة فريق آخر ، من بعض الحنابلة ، زعم أن القرآن بحروفه وأصواته ، قديم ، وبالغوا فيه حتى قال بعضهم جهلا : الجلد والغلاف قديمان ، فضلا عن المصحف(١٧) ، كما قالوا « قد تقرر الاتفاق على أن ما بين الدفتين كلام الله وأن ما نقرؤه ونسمعه ونكتبه كلام الله فيجب أن تكون الكلمات والحروف هى بعينها كلام الله ولما تقرر الاتفاق على أن كلام الله غير مخلوق ، فيجب أن تكون الكلمات أزلية فيه غير مخلوقة »(١٨)•

ومثل هذا القول ظاهر البطلان ، صادر عن عقل ضيق ونظر سقيم •

هذان الفريقان اللذان ناهضا المعتزلة فى قولهم بخلق القرآن • وقد ظل النزاع محصورا فىهذه الدائرة أيام محنة القول بخلق القرآن، أيام المأمون والمعتصم والواثق •

---

(١٧) المواقف ٣/٧٦ •

(١٨) نهاية الاقدام ص ٣١٣ •

وجاء أبو الحسن الأشعرى المتوفى نحو سنة ٣٣٠هـ ، ونقل موضوع النزاع الى نقطة أخرى ، فقال : « ان كلام الله يطلق اطلاقين كما هو الشأن فى الانسان • فالانسان يسمى متكلما باعتبارين : أحدهما بالصوت والآخر بكلام النفس الذى ليس بصوت ولا حرف ، وهو المعنى القائم بالنفس الذى يعبر عنه بالألفاظ » • فاذا انتقلنا من الانسان الى الله ، رأينا أن كلامه تعالى يطلق بهذين الاطلاقين : المعنى النفسى وهو القائم بذاته ، وهو الأزلى القديم وهو لا يتغير بتغير العبارات ، ولا يختلف باختلاف الدلالات وهذا هو الذى نريده اذا وصفنا كلام الله بالقدم ، وهو الذى يطلق عليه كلام الله حقيقة • أما القرآن • بمعنى المقرؤ المكتوب — فهو بلاشك كما يقول المعتزلة حادث مخلوق ، فان كل كلمة تقرأ تنقضى بالنطق بما بعدها ، فكل كلمة حادثة فكذا المجموع المركب منها ويطلق على المقرؤ المكتوب « كلام الله » مجازا •

ومن هنا نرى مدى التوافق بين الأشاعرة والمعتزلة فى مفهوم القرآن ، بمعنى المتلو المقرؤ •

على أن المعتزلة أنكروا ما يدعه الأشعرى من الكلام النفسى ، وبدأوا الجدل فى الانسان ، لأنه أقرب منالا ، حتى اذا فرغوا من ذلك تكلموا بنفس هذه المعانى فى الله تعالى ، عملا بمبدئهم من قياس الغائب على الشاهد •

فالأشعرى — ومعه الأشاعرة — يقول : ان هناك كلاما نفسيا قائما بالنفس الانسانية ، وبذات المتكلم ، ليس بحروف ولا أصوات يجده العاقل فى نفسه ويدور فى خلده ، تارة اخبارا عن أمور رآها أو سمعها ، وتارة حديثا مع نفسه بأمر أو نهى ووعد ووعيد ، وتارة حكما عقليا بأن الحق فى هذه المسألة كذا ، والباطل كذا ، ثم أحيانا

يتحول هذا الكلام النفسى الى كـلام لفظى،وأحيانا لا يتحول ، وهذا هو ما يسمى بالنجوى ، وهـو الذى قال فيه الله تعـالى : « فأسرها يوسف فى نفسه ، ولم يبدها لهم »(١٩) • وفى الحديث عن أم سـلمة أنها سمعت ، رسول الله وقد سأله رجل ، فقال : « أنى لأحدث نفسى بالشيء ، ولو تكلمت به لأحبطت أجرى • قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يلقى ذلك الكلام الا مؤمن » •

ومن أنكر هذه المعانى فقد جحد الضرورة ، وباهت العقل وأنكر البديهيات • ومن العجب أن الانسان قد يجوز أن يخلو ذهنه عن كل معنى ، ولكنه لا يخلو أبدا من حـديث النفس حتى فى النـوم فانه فى الحقيقة يرى فى منامه أشياء وتحدثه نفسـه بأشياء ، وربما يطـاوعه لسانه وهو نائم فيتكلم متابعة لنفسه(٢٠) •

والمعتزلة قالت : نحن لا ننكـر الخواطر التى تطرأ عـلى نفس الانسان وربما نسميها أحاديث النفس ، الا أنها فى الحقيقة تقـديرات للعبارات التى ينطق بها اللسان • فمن لا يعرف كلمة بالعربية،لا يخطر بباله كلام العرب ومن لا يعرف الفارسية لا يخطر بباله كلام الفرس• ومن عرف اللسـانين تارة تتحـدث نفسـه بلسان العـرب ، وتـارة بلسان الفرس •

فعلم على الحقيقة أن أحـاديث النفس تابعة للعبارات اللفظيـة فالكلام فى الحقيقة هو الحروف التى يعبر عنها اللسان ، ومن قادر عليها فهو المتكلم ، ومن لا يقـدر عليها ، فهو الابكم • فليس الكلام حقيقة عقلية كسائر المعانى ، بل هو عبارات وألفاظ ونحوها تختلف بالمواضعة

---

(١٩) سورة يوسف آية ٧٧ •

(٢٠) نقلا عن ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٤١ •

والاصطلاح والتـواطؤ ، حتى لو تواطأ قـوم على نقرات واشـرات ورموز ، يحصل التفاهم بها ، كما يحصل التفاهم بالعبارات(٢١) .

فما يسـميه الناس كلام النفس ، ليس الا معلومات وادراكات أدركهـا الانسان وزورها فى نفسه بعبارات وألفـاظ ، وليس هنـاك شىء وراء ذلك .

ويشبه هذا تماما ما يثيره علمـاء النفس والمنطـق حتى الآن من البحث فيما اذا كان الادراك يمكن أن يقوم بنفسه من غير ألفاظ أو لا . واذا كان فالى أى حد يكون ذلك . ولهم فى ذلك مذهبان : فمن قـائل أن من الممكن التفكير بدون الاستعانة باللغـة ومن قائل أن ذلك غـير ممكن ، وان التفكير من غير ألفاظ ، ضرب من الوهم الكاذب .

ويقول « ماكس مولر » : « ان الفكر واللغة شىء واحد » وشبه ذلك بالنقد ، فقال : ليس ما نسـميه الفكر الا وجها من وجهى النقد والوجه الآخر هو الصوت المسموع ، والنقد شىء واحد لا يقسـم ، فليس ثم فكر وصوت ولكن كلمات » .

ولقد آثار الأشاعرة والمعتزلة هذا الكـلام ليطبقوه على كـلام الله . فلما أنكر المعتزلة الكلام النفسى قالوا : ليس كلام الله ما نقرؤه ونسمعه من القرآن والكتب الدينية ، وهى مخلوقة ولاشك ، ولا شىء وراءها الا ذات الله القادرة على خلق الكلام ، المريدة للخلق .

وقال الأشاعرة : ان لله كلاما نفسيا غير القدرة والارادة والعلم وهو قـديم لا يتغير ، والقـرآن مظهر لهذه الصفة وأثر من آثارها ، وهو مخلـوق .

---

(٢١) نهاية الاقدام ص ٣٢٠ وما بعدها .

ويصور صاحب المواقف هذا معبرا عن رأى الأشعرية ، بعد كلام طـويل قائلا :

« اذا عرفت هذا ، فأعلم أن ما يقوله المعتزلة فى كلام الله تعالى وهو خلق الأصوات والحروف الدالة على المعانى المقصودة ، وكونهـا حادثة قائمة بغير ذاته تعـالى ، نحن نقول به ، ولا نزاع بيننا فيـه وما نقوله نحن كلام النفس المغاير لسائر الصفات ، فهم ينكرون ثبوته ولو سلموه لم ينفوا قدمه،فصار كل النزاع نفى النفس أو اثباته» (٢٢)٠

ومن العجيب أن يشتد الخلاف بين الناس فى مثل هذا الأمر حتى أدى بهم الى الاحتكام الى السيف ٠

ومن الواجب التنبيه الى أن تحـديد وجوه الخـلاف وحصر نقط النزاع لم يكن واضحا فى عقول أكثر النـاس اذ ذاك ، بل كانت هناك معان غامضة زاد غموضها هياج الناس وتبلبل أفكارهم ، واسـتعمال الشدة فى السيطرة عليهم ٠

فقد رأى الأشاعرة أن هناك قضيتين واضحتين :

الأولى : أن كلام الله صفة له ، وكل ما هو صـفة فهو قـديم ، فكلام الله قـديم ٠

الثانية : أن القرآن كلام الله ، وهو مركب من حروف مرتبة متعاقبة فى الوجود ، وكل ما هو كذلك حادث ٠ فالقرآن حادث ومخلوق ٠

هاتان القضيتان ، كانتا سببا فى تشتيت أفكار الناس ، وجرهم الى منازعات جدلية شديدة ٠ ومما زاد المسائل غمـوضا ، دخول العـامة فى النـزاع ٠

---

(٢٢) المواقف ٧٩/٣ ٠

ولو كانت مواضع النزاع محددة، لانحسم كثير من الخلاف ، ولكن هذا لم يصل اليه العلماء ، الا بعد أن أغمد السيف ، وهدأت الأفكار، وتكلم العلمـاء وحدهم •

هذا هو الجانب النظرى من مسألة خلق القرآن •

فماذا عن جانبها السياسى ؟

ان الجانب السياسى من هذه المسألة ، يتمثل فى تدخل الحكـومة فى شأنها ، وتنفيذها بقوة الدولة ، مما جر الكثير من ورائه •

ولقد مرت الاشارة الى القول بخلق القرآن فى آخر الدولة الأموية على لسان الجعد بن درهم ، وتبعه فى ذلك الجهم بن صفوان شـيخ الجهمية ، الذى كان ينفى الصفات ، واستتبع ذلك نفى الكلام والقول بخلق القرآن •

والرواة يحدثوننا أن بشرا المريسى ، كان يقول بخلق القـرآن ، وذلك فى أيام الرشيد ، وظل يدعو الى ذلك نحوا من أربعين سـنة ، ويؤلف فى ذلك الكتب ، ومات عام ٢١٨هـ(٢٣) •

ولقد ورثت المعتزلة هذا القول عن الجعـد بن درهم ، فقـالوا بذلك وازدادوا المسألة تفصيلا ، وتوسـعوا فى الجدل ، حتى رأينـا « المردار » المعتزلى ، يتوسع فى هذا القول ، ويكفر من يقول بقـدم القـرآن •

عـلى أن الباحثين يختلفـون ، فى أن المسلمين تأثروا فى قولهم بخلق القرآن ، باليهود ، كما يروى ابن الأثير ، أو بالنصارى القائلين

---

(٢٣) تاريخ بغداد ـ الخطيب ٦٧/٧ •

بأن عيسى كلمة الله ، ولا يصح لكلمة الله أن تكون مخلوقة ولقد جارى المسلمون المسيحيين فى ذلك على سبيل التأييد وقد سبقت الاشارة الى هذا الأمر فى الحديث عن الجانب النظرى من المسألة •

ويظهر من هذا العرض أن مسألة خلق القرآن ، ظلت تنمو — بعد ظهورها فى آخر الدولة الأموية — ويدور حولها الجدل ، وتتسع دائرة المناظرات ، وتؤلف فيها الكتب الى عهد المأمون •

ولم يفكر أحـد من قبل ، فى اتخـاذ هذه المسألة ، دينـا رسميا للدولة ، حتى جاء المأمون •

فلقد كان المأمون على ثقـافة واسعة عميقـة ، شـغوفا بالبحث العلمى والأدبى ، يناقش فى قصره ، رجال الفكر والعلم ، ويـناظرهم فى الفقه والأدب والتاريخ والكلام ، هذا الى جانب ما كان يتصف به من حرية فى التفكير ، مع التقيد بأصول الدين •

وقد تناقل الناس على ألسـنتهم ما كان يدور فى مجالسـه من الجدل والمناظرة ، فتجادلوا هم كذلك ، وكان جـدالهم صدى لجـدل القصر وقد قرب المعتزلة منـه ، وصاروا ذوى نفـوذ فى القصر ، لأن الاعتزال كان أقرب المذاهب الى نفسه ، لأنه أكثر حرية ، وأكثر اعتمادا على العقـل • وكان ثمامة بن الأشرس وأحمد بن أبى دؤاد ، من أظهر رجـال الاعتزال لديه(٢٤) •

ونشأت مسألة جديدة ، شغلت المجتمع فى ذلك الوقت : فهل يظل الاعتزال مذهبا كغيره من المذاهب كالأرجاء ونحوه ، فيكون كل انسان حرا أن يعتنق منها ما يراه صوابا ، دون أن تتدخل الدولـة فى ذلك ، مادامت المسألة مجرد آراء داخل حدود الاسـلام ؟ أم تتخذ الدولـة

(٢٤) ضحى الاسلام ١٦٣/٣ •

الاعتزال شعارا لها وتحمل الناس عليه ، ويكون مذهبها الرسمى كما أن الاسلام دينها الرسمى ؟

وقد ظهر تبعا لذلك : تياران :

أحدهما : يرى أنه لا شأن للدولة بذلك ، فالناس أحرار فى اعتقاد ما يرون ، ولا ينبغى للخليفة أن ينصر مذهبا على مذهب .

وكان هذا رأى يحى بن أكثم قاضى القضاة فى عهد المأمون ، اذ نراه يقول للمأمون حين هم بلعن معاوية : « والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم انك تميل الى فرقة من الفرق ، فان ذلك أصلح فى السياسية ، وأحرى فى التدبير»(٢٥) .

ثانيهما : يحسن للخليفة الرأى فى حمل الناس على ما تثبت عندهم صحته وكان ثمامة بن الأشرس ، وأحمد بن أبى دؤاد من أظهر هؤلاء ، وقد تغلب الفريق الثانى ، بعد وفاة يزيد بن هارون الواسطى ، وعزل قاضى القضاة يحى بن أكثم ، وتولى ابن أبى دؤاد مكانه . وحمل المأمون الناس على القول بخلق القرآن سنة ٢١٨هـ .

والواقع أن المأمون كان مع قوة شخصيته يتأثر برأى من حوله . فمن قبل ، أدخل المسائل الدينية فى شئون الدولة ، فأعلن تفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر ، واغضب كثيرا من الناس ، ونادى كذلك من قبل ، بتحليل نكاح المتعة ، لما صح عنده من حديث حل المتعة حتى أقنعه يحى بن أكثم ، برواية الأحاديث فى رمتها عن الزهرى واقامة البراهين على حرمتها ، فأمر بالمناداة بتحريمها ، بعد أن كان أمر بها(٢٦) ، فهو من قديم يميل الى حمل الناس على ما يعتقد أنه

---

(٢٥) تاريخ بغداد ــ طبعة ــ ص ٩١ وما بعدها .

(٢٦) وفيات الأعيان ــ ابن خلكان ٣/٣٢٤ .

الحق فى مسائل الدين ونصره المعتزلة وشجعوه على ذلك ، لأنهم بالغوا فى أصولهم بالقول بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ولقد كانت مسألة خلق القرآن ، هى المسألة التى كانت الشغل الشاغل للمعتزلة زمن المأمون لما كثر فيها من قول وجدل ، اذ أنها تتبنى على أكبر أصل من أصولهم وهو التوحيد وعدم تعدد صفات الله ، لذلك ساعدوا المأمون فى ميله ، وكان أحمد بن أبى دؤاد زعيمهم فى هذه المسألة وقد ظلت هذه المسألة ، شاغل الدولة والناس من عام ٢١٨هـ الى ٢٣٤هـ ، وقد سميت فى التاريخ بالمحنة ، بمعنى الامتحان والاختبار .

وقد استعمل هذا اللفظ فيما لقيه الأنبياء من العذاب ، فصبروا على دعوتهم ، وفيما لقيه الشيعة من التعذيب والصبر على ما ابتلوا به ، ثم اشتهر استعماله فى اختبار العلماء بخلق القرآن ، وما لقوه فى ذلك من عذاب .

ويذكر الرواه أن هذه الفكرة نضجت عند المأمون ، واعتنقها من قديم ، ويروى الطبرى أنه فى عام ٢١٢هـ أظهر المأمون القول بخلق القرآن ، ثم فى عام ٢١٨هـ امتحن الناس بذلك .

من ذلك يمكن القول بأن المأمون كان يتكلم فى خلق القرآن فى مجالسه الخاصة الى عام ٢١٢هـ ، ثم أعلن رأيه على الناس فى تلك السنة ، دون أن يضطرهم الى القول به ، ثم كانت الخطوة الأخيرة عام ٢١٨هـ ، حيث حمل الناس على ذلك .

وقد بدأ المأمون خطوته هذه عام ٢١٨هـ ، بارسال كتاب الى والى بغداد اسحق بن ابراهيم ، بدأه بالسبب الذى حمل فيه الناس على ذلك . فواجب خليفة المسلمين حفظ الدين واقامته ، والعمل بالحق

فى الرعية • فقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ، ممن لا نظر له ولا رواية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاء بنور العلم وبرهانه فى جميع الأقطار والافاق — أهل جهالة بالله وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والايمان به ، ونكوب عن واضحات اعلامه وواجب سبيله وقصوروا أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكير والتذكر وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى ، وما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين على أنه (أى القرآن) قديم أزلى لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه • وقد قال عز وجل فى محكم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة : « انا جعلناه قرآنا عربيا » • فكل ما جعله الله خلقه • وقال : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » وقال عز وجل : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق » • فاخبر أنه قصص لأمور أحدثها بعده وتلا به متقدمها• فقال تعالى : « الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » وكل مفصل فله ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه • ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا الى قولهم ونسبوا أنفسهم الى السنة، وفى كل فصل فى كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم • ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطن والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب ، والتخشع لغير الله والتقشف لغير الدين الى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيء آرائهم ، تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق الى باطلهم واتخذوا دون الله وليجة الى ضلالتهم »(٢٧) •

---

(٢٧) تاريخ الطبرى ، تاريخ بغداد

وقد اتهم المأمون هؤلاء بفساد العقيدة ، وبأنهم شر الأمة ورءوس الضلالة ، وأنهم متهمون فى صدقهم ، وغير موثوق فى قولهم وعملهم طلب من عامله على بغداد أن يجمع من بحضرته من القضاة ، ويقرأ عليهم كتابه اليه ، وببدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيف ما يعتقدون فى خلق الله القرآن وأحداثه ، وأن يعلمهم أن الخليفة لا يستعين فى عمله ، ولا يأتمن على أمور رعيته ، بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه ، فاذا أقروا بذلك ، فعليه أن يأمر بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك اثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ، وان يكتب الى الخليفة بما يكون فى ذلك .

ونحن نستخلص من هذا الكتاب أن المأمون كان يرى وجوب تصحيح عقائد الناس الفاسدة ، اذا ما تغلغل الفساد الى أصل من أصول الدين ، كالاشراك مع الله فى القدم شيئا آخر مثل القرآن،وأن كثيرا من عامة الناس كانوا يتكلمون فى مسألة خلق القرآن ويرون أنه قديم ولهم علماء متورعون يدعونهم الى ذلك ، وأن بعض القضاة كان على هذا الرأى بالقول بأن القرآن قديم ، وكان يقبل شهادة من يقول بقدمه ، ويرد شهادة من يقول بحدوثه ، وأن القاضى أو الشاهد غير موثوق بقضائه ولا بشهادته اذا لم تصح عقيدته ، فالمعتقد بقدم القرآن ضعيف التوحيد سيء العقيدة غير مؤتمن على شهادة ولا حكم فهو متهم بالكذب فى الشهادة والظلم فى الحكم .

وقد اقتصرت الخطوة الأولى للمأمون على هذا ، فلا تعذيب،ولكن لا يتولى أحكامه الا من واثق به وقال ان القرآن مخلوق ، لأنه برهان صحة العقل ودليل صحة الايمان(٢٨) .

---

(٢٨) ضحي الاسلام ١٦٨ .

ومن الواضح أن روح الاعتزال تظهر على كتاب المأمون الى والى بغداد وكذلك تعبيرات المعتزلة وحجتهم فى التوحيد ، كما يظهر فيه طابع المعتزلة الذى يجمع بين التعصب الحاد وحرية الفكر المفرطه .

لذلك لم يكن غريبا على المأمون ، وهو الحر التفكير ، الواسع العقل ان يخرج عن حريته كالمعتزلة ، بعد أن وصل الى التوحيد واعتقد أن القول بقدم القرآن يمس هذا التوحيد — ويأبى أن يتولى أحد القضاة عملا له ، الا بعد أن يوحد توحيده .

ولقد كتب المأمون بعد ذلك الى اسحق بن ابراهيم أيضا ، بارسال سبعة من كبار المحدثين الذين كانوا يشنعون على المأمون بخلق القرآن وكانوا من رؤس من يقولون بقدم القرآن ، وهؤلاء السبعة هم :

محمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى ، وأبو مسلم مستلى يزيد ابن هارون المحدث ويحى بن معين ، وزهير بن حرب ، واسماعيل بن داود ، واسماعيل بن أبى مسعود وأحمد بن الدورقى ، ولعل المأمون كان يرى أنهم أن احضروا أمامه ، كان ذلك أرهب لهم ، فتنقطع الفتنة بعد أن يحملهم الخليفة على متابعته فيما يقول ، وينقاد الناس لهم . غير أن هؤلاء العلماء ، وان كانوا قد أجابوا بأن القرآن مخلوق أمام الخليفة ، لم يكن لاعترافهم أى صدى فى اخماد فتنة الناس .

ولم يكن اسم أحمد بن حنبل بين هؤلاء السبعة ، أما لأنه لم يكن معروفا اذ ذاك بشدة المعارضة ، وان شهرته فى هذا أتت بعد هذا التاريخ ، واما أن اسمه كان بين هؤلاء ، ولكن أحمد بن أبى دؤاد استبعده ، لمعرفته بصلابته .

ويروى أن ابن حنبل حزن لهذا الحادث ، وقال : « لو كانوا صبروا ، وقاموا الله ، لكان انقطع الأمر وحذرهم الرجل (أى المأمون).

ولكن لما أجابوا ، اجترأ على غيرهم » . وكان يقول عند ذكرهم « هم أول من ثلم هذه الثلمة » .

ونلاحظ أن المأمون فى تلك الخطوة الثانية ، لم يكتف بحرمان من ليس على مذهبه من مناصب الدولة ، فحسب ، بل أراد حمل الفقهاء والمحدثين على الاقرار بخلق القرآن . لذلك فانه اعتقد أنه وهو خليفة المسلمين وراعيهم — مسئول عن رعيته ، ومن هذا انه مسئول عن توحيدهم ، وما دام القول بقدم القرآن شبه اشراك ، فمن الواجب أن يرد الناس عن ذلك كما يرد الكافر عن كفره . والخطوة الثالثة أن يقتله كما يقتل المرتد . وما دام العلماء قادة الناس فى هذه العقائد، فمن الواجب الابتداء بهم ، وبتصحيح عقيدتهم ، وعقابهم اذا أصروا، بل بقتلهم أحيانا .

لذلك نجد المأمون فى كتابه الثالث الى عامله اسحق بن ابراهيم يوضح هذه المعانى فيقول فى هذا الكتاب :

« ومما تبينه أمير المؤمنين برويته وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع فى الدين من وكفه وضرره ، ما يناله المسلمون من القول فى القرآن الذى جعله الله أماما لهم وأثرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم باقيا لهم ، واشتباهه على كثير منهم حتى حسن عندهم وتزين فى عقولهم ألا يكون مخلوقا . فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذى بان به عن خلقه ، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته وانشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته التى لا يبلغ أولاها ولا يدرك مداها ، وكان كل شىء دونه خلقا من خلقه وحدثا هو المحدث له ، وان كان القرآن ناطقا به ، ودالا عليه ، وقاطعا للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى فى ادعائهم فى عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، اذ كان كلمة الله والله عز وجل يقول : « انا جعلناه قرآنا عربيا » وتأويل ذلك انا خلقناه كما قال جل جلاله : « وجعل منها زوجها ليسكن اليها » وقال : « وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا » « وجعلنا من الماء كل شىء حى » فسوى الله عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التى ذكرها ... وقد عظم هؤلاء الجهلة — بقولهم فى القرآن — الثلم فى

دينهم والجرح فى أمانتهم وسهلوا السبيل لعدو الاسلام ... ووضعوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى وحـــده ، وشبهوه بـ .... وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا فى الدين ولا نصيبا من الايمـــان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فى أمانة ولا عـــدالة ولا شـــهادة ولا صـــدق فى قول ولا حكـــاية ، ولا تولية لشىء من أمر الرعية،وان ظهر قصد بعضهم ، وعرف بالسداد مسدد فيهم فان الفروع مردودة الى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها ومن كان جاهلا بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانية ، فهو بما سواه أعظم جهلا . فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبـــد الرحمن بن اسحق القاضى ، كتـــاب أمير المؤمنين ، بما كتب به اليك ، وأنصفهما عن علمهما فى القـــرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لايستعين على شىء من أمور المسلمين الا بمن وثق باخلاصه وتوحيده ، وانه لا توحيد لم يقر بأن القرآن مخلوق،فان قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك ، فتقـــدم اليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ... فمن يقل منهم أنه مخلوق أبطلا شهادته ، وأن ثبت عفافه بالقصد والسداد فى أمره ، وأفعل ذلك بمن فى سائر عملك من القضاة،واشرف عليهم اشرافا يريد الله به ذا البصيرة فى بصيرته ويمنع المرتاب من اغفال دينه وأكتب الى أمير المؤمنين بمـــا يكون منك فى ذلك ان شاء الله » .

وقد نفذ أمير بغداد ما جاء فى هذا الكتاب الثالث ، فجمع الكثير من الفقهاء والحكام والمحدثين وامتحنهم . فالفقهـــاء يتولون الفتيا ، والحكام يتولون الحكم ، والمحدثون يتولون التعليم ، ولا يريد المأمون أن يتولى هذه الأمور ، الا من قال بخلق القرآن .

ونحن نورد هنا بعض النماذج من الأسئلة ، والاجابات عنها كمـــا وردت فى كتب التـــاريخ :

النمــوذج الأول :

اسحق بن ابراهيم : ما تقول فى القرآن ؟
بشر بن الوليد : القرآن كلام الله .
اســـحق : لم أسألك عن هذا . أمخلوق هو ؟
بشر : الله خـــلق كل شىء .
اســـحق : هل القرآن شىء ؟
بشر : هو شىء .
اســـحق : فمخلوق هو ؟
بشر : ليس بخـــالق .
اســـحق : لا أسألك عن هذا . أمخلـــوق هو ؟
بشر : ما أحسن غير ما قلت .

النمـــوذج الثـــانى :

اســـحق : هل القـــرآن مخلوق ؟
على بن أبى مقاتل : القرآن كلام الله .
اســـحق : لم أسألك عن هذا . أمخلوق هو ؟
عـــلى : هو كلام الله ، وان أمرنا أمير المؤمنين بشىء ـــ ســـمعنا وأطعنـــا .

النمـــوذج الثـــالث :

اســـحق : هل القرآن مخلوق ؟
أبو حسان الزيادى : القرآن كلام الله والله خالق كل شىء وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين أمامنا وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وأن أمرنا ائتمرنا وان نهانا انتهينا وأن دعانا أجبنا .
اسحق : هل القرآن مخلوق ؟

أبو حسان : (يعيد مقالته) .

اسحق : هذه مقالة أمير المؤمنين .

أبو حسان : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم اليها وان أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك ان أقول ما أمرتك فانك الثقة للمأمون .

اسحق : ما أمرنى أن أبلغك شيئا ، وانما أمرنى أن أمتحنك .

النموذج الرابع :

اسحق : ما تقول فى القرآن ؟

أحمد بن حنبل : هو كلام الله .

اسحق : أمخلوق هو ؟

أحمد : هو كلام الله لا أزيد عليها .

اسحق : ما معنى أنه يقال سميع بصير .

أحمد : هو كما وصف نفسه .

اسحق : فما معناه ؟

أحمد : لا أدرى ، هو كما وصف نفسه .

النموذج الخامس :

اسحق : ما تقول فى القرآن ؟

ابن البكاء : القرآن مجعول لقول الله تعالى « انا جعلناه قرآنا عربيا » والقرآن محدث لقوله «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث» .

اسحق : فالمجعول مخلوق ؟

ابن البكاء : لا أقول مخلوق ، ولكن مجعول .

اسحق : فالقرآن مخلوق ؟

ابن البكاء : لا أقول مخلوق ولكن مجعول .

ولقد حرر اسحق بن ابراهيم محضرا بجميع أقوال الذين امتحنهم وأرسلها الى المأمون ، فثار ثائرة ، واشتد غضبه ، ذلك لأنه رأى أن أجوبتهم لا تدل على عقل ، ولا تنكر فى صراحة ولا تقر فى صراحة والبعض يسلم بالمقدمات وينكر النتيجة ، فيقول القرآن مجعول .

والمجعول مخلوق ، ولا يرضى القول بأن القرآن مخلوق . لهذا أرسل كتابه الرابع الى اسحق وهو فى حال من الغضب شديدة ، يأمره أن يعيد الكرة عليهم ، فمن أبى منهم ، حملهم أجمعين موثقين الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم فى طريقهم ويسلمهم الى من يؤمن بتسليمهم اليه لينصحهم أمير المؤمنين ، فان لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف .

وقد أعاد امتحان نحو من ثلاثين قاضيا ومحدثا وفقيها ، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فأقروا جميعا بأن القرآن مخلوق ، الا أربعة هم : أحمد بن حنبل ، وسجادة والقواريرى ومحمد بن نوح ، فشدهم اسحق فى الحديد ، وأعاد امتحانهم مرة ثالثة ، فاعترف سجادة بخلق القرآن ، وتبعه القواريرى ، ولم يبق الا ابن حنبل ومحمد بن نوح فشدا فى الحديد ، ووجههما الى الخليفة فى طرسوس . وكتب اسحق كتابا الى المأمون يذكر فيه أن القوم الذين أقروا ، لم يجيبوا عن عقيدة ، وانما عن تأويل ، وهم مكرهون ، وليس على المكره من حرج . فأرسل اليه المأمون كتابا خامسا يعلن أن هؤلاء أخطأوا التأويل وليست الآية « الا من أكره وقلبه مطمئن بالأيمان » منطبقة عليهم انما عنى الله بهذه الآية من كان يعتقد الايمان مظهر الشرك .

فأما من كان يعتقد الشرك مظهر الايمان فليست الآية له . وأمر بأشخاص من أبى ، اليه فى طرسوس وعددهم واحد وعشرون من الممتنعين عن الاقرار بخلق القرآن ، ولكن وفاة المأمون بلغتهم حين بلغوا مدينة الرقة،فأعيدوا الى بغداد حيث خلى اسحاق سبيل أكثرهم.

وقد مات محمد بن نوح وهو عائد الى بغداد بعد موت المـأمون وصلى عليه ابن حنبـل ، الذى تركزت المعارضة فيـه ، فكان زعيمهـا وعلمها ، وقبلة الأنظار فيها ، ولذلك لم يخل سبيله ، مثل غيره •

وتولى الخليفة المعتصم الحكم ، بعد أن أوصاه المأمون أن يأخذ بسيرته ، وأن يحرص على اشراك ابن أبى دؤاد فى المشورة •

وكان المعتصم رجلا جنديا ، ليس كأخيه المأمون العـالم المثقف فلم يجالس العلماء ، ولم يناظرهم فى قصره كما كان العهد أيام المأمون، لذلك نهض بتنفيذ الامتحان بخلق القرآن ، وألزم نفسه بذلك ، واكتب الى الامصار بالاستمرار فى امتحان الناس بخلق القرآن ، وأمر بتعليم الصبيان ذلك ، وقتـل فى هذه المسألة خلقا من العلماء وضرب الامام ابن حنبل سنة ٢٢٠هـ •

فأما الامام ابن حنبل ، فقد أصر على الامتناع عن القول بخـلق القرآن ، وأصرت دولة المعتصم على حمله على ذلك ، وقد حز اعجاب الجمهور لصـلابته ، واسخط رجـال الدولة لأنه تحـداهم ، ورفض ما نصحه به زائروه ، من القـول بخلق القرآن تقية ، كما قال غـيره من العلماء وكان يقول « اذا أجاب العالم تقية ، والجاهل بجهل،فمتى يتبين الحق » وقد ذكروا له ما روى فى التقيـة من الأحاديث فقـال : « كيف تصنعون بحديث خباب : ان من كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه »(٢٩) •

وتذكر المراجع ــ مثل طبقات الشافعية لابن السبكى حلية الأولياء لأبى نعيم ــ أن المعتصم دعاه بحضور ابن أبى دؤاد وأصحابه ،

---

(٢٩) تاريخ الخلفاء ١٣٣ •

وقد غصت الدار بالقضاء والفقهاء من اتباع الدولة وأمرهم المعتصم أن يناظروه وهذا مثل لهذه المناظرة •

المعتصم : ما تقول ؟

ابن حنبل : أنا أشهد الا اله الا الله وان جدك ابن عباس يحكى أن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم،أمرهم بالايمان بالله فقال : اتدرون ما الايمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم • قال : شهادة الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وأقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم (يعنى أن ليس منه القول بخلق القرآن) يا أمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله أقول به •

أحد الحاضرين : قال تعالى : «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث» أفيكون محدث الا مخلوق ؟

ابن حنبل : قال الله تعالى : « والقرآن ذى الذكر » فالذكر هو القرآن ، وتلك ليس فيها ألف ولام •

آخر : أليس قال الله خالق كل شىء •

ابن حنبل : قال تعالى : « تدمر كل شىء بأمر ربها » فهل دمرت الا ما أراد الله ؟

ثالث : ما تقول فى حديث عمران بن حصين : « ان الله خلق الذكر » ؟

ابن حنبل : هذا خطأ ، ان الرواية : « ان الله كتب الذكر » •

رابع : جاء فى حديث ابن مسعود : « ما خلق الله من جنة ولا نار ، ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسى •

ابن حنبل : انما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والأرض ولم يقع على القرآن •

خامس : ان القول بأن كلام الله غير مخلوق يؤدى الى التشبيه •

ابن حنبل : هو أحـد صمد لا شبيه له ولا عدل وهو كما وصف به نفسه •

المعتصم : ويحك ما تقول ؟

ابن حنبل : يا أمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله •

بعض الحاضرين بحاجة بحجج عقلية :

ابن حنبل : ما أدرى ما هـذا ، انه ليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله •

بعض الحاضرين : يا أمير المؤمنين اذا توجهت له الحجة ، علينا وثب ، واذا كلمناه بشىء يقول لا أدرى ما هذا •

ابن أبى داود : يا أمير المؤمنين ، انه ضال مضل مبتدع •

ثم ينفض المجلس ، ويعاد الى الحبس ، ثم يعاودون مناظرته فى مجلس آخر • واستمرت مناظرته ثلاثة أيام • وبعدها أمر المعتصم بضربه بالسياط حتى سال دمه، ثم أرسل الى السجن(٣٠) •

وقد حرض ابن أبى دؤاد المعتصم على قتله ، ولكن المعتصم اكتفى بضربه ، ثم أمر به فخلى سبيله • ولعل احجام المعتصم عن قتله يرجع

---

(٣٠) انظر هذه المناظرات فى طبقات الشافعية لابن السبكى وحلية الأولياء لأبى نعيم •

الى أن جمهور الناس التفوا حول ابن حنبل أكثر من التفافهم حول أى شخص آخر ، وقد تكون الفتنة ان قتله المعتصم .

وقد يعود عدم قتله ، الى اعجاب المعتصم بشجاعته وثباته على ما يعتقد انه الحق ، فلم يخف ولم يهن ، وكان المعتصم بطبعه شجاعا هذا بالاضافة الى أنه قرأ فى وجه ابن حنبل ، أنه ليس بمنافق يتظاهر بالورع ، بل رأى أنه يتكلم عن عقيدة ، ويصرح بأن الله قديم وليس كمثله شىء ، الا أنه لا يقول بخلق القرآن ، لأن الله تعالى : لم يقل ذلك ، ولم يقل ذلك ، ولم يدع اليه الرسول .

ويموت المعتصم ، ويخلفه الواثق عام ٢٢٧هـ ، وكان واسع الثقافة وكان يسمى المأمون الأصغر لأدبه وفضله ، بل انه كان يفضل على المأمون لأنه كان أكثر رواية للشعر العربى من المأمون ، فتعصب للقول بخلق القرآن عن علم وعقيدة .

ولم يتعرض الواثق لأحمد بن حنبل ، ويروى الرواة أن الخليفة أمره الا يساكنه بأرضه فاختفى أحمد بن حنبل حتى مات الواثق .

ويموت الواثق عام ٢٣٢هـ ، ويخلفه المتوكل الذى لم يتحمس للقول بخلق القرآن ، لذلك فترت حركة الامتحان حتى ٢٣٤هـ ، حيث نهى فيها عن القول بخلق القرآن وكتب بذلك الى الآفاق ، وتوفر له دعاء الخلق له ، واثنوا عليه عظيم الثناء ، حتى قال القائلون : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رده المظالم والمتوكل فى احياء السنة ، وذلك على ما كان عليه من ظلم وعسف(٣١) .

ولقد شغلت مسألة خلق القرآن ، الناس فى كافة الأقطار الاسلامية

---

(٣١) طبقات الشافعية للسبكى .

وكان الجدل بين العلماء ، وامتحان الأمراء للعلماء والقضاه والحكام فى مصر وفى الشام وفى فارس ، كما حدث فى العراق ، مستقر دولة الخلافة العباسية .

ففى مصر ، يمتحن والى مصر نصر بن عبد الله الملقب كيدر،قاضى مصر هارون بن عبد الله الزهرى ، وذلك بعد ثلاثة شهور من صدور كتاب المأمون الأول ، الى اسحق بن ابراهيم والى بغداد ، عام ٢١٨هـ وقد أجاب القاضى هارون بالقول بخلق القرآن ، ثم امتحن الشهود فمن توقف عن القول بذلك سقطت شهادته ، وكذلك امتحن القضاء وأهل الحديث وغيرهم(٣٢) .

وتوالى الولاه على مصر ، فى عهد المأمون ثم المعتصم ، وهم يمتحنون العلماء بمصر . ويذكر أبو المحاسن صاحب النجوم الزاهرة، أن موسى بن العباس الذى ولى حكم مصر سنة ٢١٩هـ اباد فقهاء مصر وعلماءها الى أن أجاب غالبها بالقول بخلق القرآن(٣٣) .

وقد كان قاضى مصر فى أيام المعتصم والواثق ، محمد بن أبى الليث من أشد الناس تحمسا للقول بخلق القرآن وتعذيب من أنكر من المصريين وكان يناصر المعتزلة ، وكان حنفى المذهب ، يكره الشافعية والمالكية ولذا فقد اضطهدهم وأورى نار المحنة بخلق القرآن،لتعذيبهم والايقاع بهم .

ويذكر شاعر مصر اذ ذاك الحسين بن عبد السلام ، ما فعله محمد ابن أبى الليث تنكيلا بالشافعية والمالكية ، حتى اعترفوا بخلق القرآن فيقول من قصيدة له :

---

(٣٢) النجوم الزاهرة ـ ابن تغرى بردى ٢١٨/٢ .
(٣٣) نفس المصدر ٢٣٢/٢ .

كــل ينــادى بالقــــرآن وخلقــــه
فشــــهرتهم بمقــــالة لم تشــــهر
لــم ترض ان نطقت بهــــا أفواههم
حتى المســـاجد خلقــه لم تنكــــر
لمــا أريتهــــم الـــردى متصـــــورا
زعمـــــوا بأن الله غــــير مصـــــور

وقد لزم بعض الناس من جــراء ذلك بيته فلم يظهر ، وبعضهم هرب الى اليمن ، وكان ممن هرب ، ذو النـون المصرى الصوفى ، ثم قبض عليه وامتحن وأقر • وقد ملأ ابن أبى الليث السجون بمن أنكـر خلق القرآن ، ولم يبق عالم ولا فقيه ولا محدث ولا معلم ، ولا مؤذن• الا وقد أخذ بالمحنة •

وقد بلغ الأمر بهذا القــاضى ، ان أمر ان يكتب على المســاجد : « لا اله الا الله ، رب القرآن المخلوق » ، ومنع الفقهاء من أصـــحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المساجد ، وأمر الا يقربوها(٣٤) •

واستمر الحال كذلك أيام الواثق ، حتى ورد كتاب المتوكل مصر فرفعت المحنة ، وسكت الناس عن هذه المقالة جملة •

وكان ممن ذاق النكال فى مصر أيــام الواثق صاحب الشــافعى ووارث علمه ، يوسف بن يحى البويطى • فقد امتحنه والى مصر ، بعد ان كتب اليه ابن أبى دؤاد ، بذلك ، وأبى البويطى القول بخلق القرآن وقال : « انما خلق الله الخلق بـ (كن) فاذا كانت مخــلوقة ، فكأن مخلوقا خلق بمخــلوق ، ولئن أدخلت عليــه (أى الواثق) لأصــدقنه ولا موتن فى حديدى هذا حتى يأتى قوم يعلمون أنه قد مات فى هــذا

(٣٤) الولاة والقضاة للكندى •

الشأن قوم فى حديدهم » • وقد حمل من مصر الى بغداد ومات فى سجنها عام ٢٣١هـ •

ولقد انعكست محاكمة الولاة للناس ، على مجالس الخاصة والعامة الذين صاروا يلوكون المسألة فيما بينهم • فاذا جلس عالم مجلسا سأله سائل : هل القرآن مخلوق ؟ واذا خلا الناس بعضهم الى بعض، تحدثوا فى اخبار خلق القرآن • وبلغ الأمر مداه ، حين أصبح يمس العلاقات بين الناس • فكان من يحقد على آخر ، ويريد أن يكيد له اتهمه بأنه يقول أن القرآن غير مخلوق •

من ذلك ما ورد أن البخارى اتهم بأنه يقول أن اللفظ بالقرآن مخلوق • فلما كان فى نيسابور • وحضر الناس لسماعه ، قام اليه رجل فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فى اللفظ بالقرآن : أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟ فأعرض عنه ولم يجبه • فأعاد الرجل السؤال فأعرض عنه ، ثم أعاد ، فالتفت اليه البخارى وقال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأفعال العباد والامتحان بدعة • فشغب الرجل وكذلك شغب الناس وتفرقوا عنه(٣٥) •

ومما سبب شغبهم عليه ، انه أراد التفرقة بين القرآن وهو كلام الله وبين القرآن الذى هو نطقنا به ، وكتابتنا له ، وأراد أن يقول أن الأول قديم ، والثانى محدث ، وكانوا يريدون القول بأنه قديم حتى ألفاظنا به •

ولقد أصبحت مسألة خلق القرآن داخلة فى المزاح والأدب ، كما تطورت الى الفتن والدسائس •

---

(٣٥) طبقات الشافعية ٢/١٠ •

فقد رووا أن رجلا من الظرفاء سمع آخر يقرأ قراءة قبيحة فقال : أظن هذا هو القرآن الذى يزعم ابن أبى دؤاد انه مخلوق ، بعد هذا العرض نعود لنسأل : ما هذه المسألة ؟ وكيف وصلت الى هذا المدى ؟ وكيف أصيب المسلمون بهذا البلاء ؟ وما سبب هذه المسألة وماذا كانت وجهة نظر كل فريق ؟ وما النتائج التى نجمت عنها ؟

١ — أن بعض الباحثين المحدثين(٣٦) ، يتقصى الداعى لحزب الحكومة من معتزلة وخلفاء ، فيرى أن نيتهم كانت حسنة ، وقصدهم حميدا ذلك أن المعتزلة من أول أمرهم رأوا أن عقائد الناس قد حاق بها الفساد ، ووجب تصحيحها ، والتصحيح فى نظرهم يجب أن يدور على توحيد الله وعدله ، وقد جرهم القول فى التوحيد ، الى أن يكون بكل معانيه ، ورأوا أن القول بقدم القرآن تعديد للقديم ، كما أنكروا الصفات لما فيها من تعديد ، وأنكروا رؤية الله لما فيها من تجسيم . لذا دعوا الناس الى تنزيه فلسفى وتوحيد فلسفى لا تجسيم فيه ولا تشبيه ولا تعدد . وبعثوا بدعاتهم الى الأمصار والأقطار النائية للدعوة الى ذلك . واذا أتيحت لهم فرصة فى سلطة وقوة استعملوها فى محاربة المنحرف عن الدين والمائل الى الالحاد ، ولو أدى بهم الأمر الى قتله . وقد لبى دعوتهم خلق كثير . وقد ظفروا بتأييد الحكومة فى آخر الدولة الأموية ، حتى جاء المأمون العباسى فمال الى فكرتهم ، وجعل من قصره مجمعا للبحث والتناظر والجدال فى حرية وصراحة ، والزام الناس بما اتفق الرأى عليه ، كما سلف أن ذكرنا ، وشاء القدر أن يكون مظهر هذا ، مسألة خلق القرآن ، التى كانت تمس أصلا من أصول الدين ، وهو التوحيد .

---

(٣٦) ضحى الاسلام جـ ٣ ص ١٨٦ .

وكانت هذه المسألة أوضح من غـيرها من مسائل الاعتزال كرؤية الله يوم القيامة أو خلق الأفعال ، وكان عذر المنكر فيها أضعف .

فقد يستطيع المجيب عن مسألة رؤية الله ، ان يهرب بأننا سنكون يوم القيامة خلقا آخر ، وليست عيوننا فى الآخرة ، كعيوننا فى الدنيا .

ومسألة خلق الأفعال ليست جلية ، ففى القرآن آيات تدل على هذا وذاك ، أما خلق القرآن ، فعليه الأدلة العقلية والنقلية جلية .

٢ ــ ومن ناحية أخرى ، فمن طبائع الناس حب المعارضة،والعطف عليها ، يسـتوى فى ذلك المعارضة السياسية والمعارضة الدينية ، وهم أشد تحمسا للمعارضة الدينية . لذلك وقف المـأمون ورجاله فى صف ووقف هؤلاء العلمـاء المعارضون والعامة من ورائهم ، فى معسـكرين متضـادين .

وكلما ازداد عسف الحكـومة ، أفرط العامة فى تأييد المعـارض ، وأخذت كل خطوة تدفع الى ما وراءها . وقـد رأينا أن المعتصم كان زعيم الحكومة وحوله علماء المعتزلة ورجال الدولة ، وزعيم المعارضة، كان ابن حنبل ومن حوله قلوب الشعب .

وأصبح رجوع الحكومة ، معناه ضـياع هيبتها ، وتمكن العـامة وقادتهم الجهال ــ فى نظرهم ــ من السيطرة على الحكومة ، وفى هذا الخطر الكبـير .

٣ ــ وأما وجهة نظر المعارضين ، فالظاهر أنهم لم يكونوا عـلى رأى واحد كما كانت المعتزلة ، بل كانوا أصـنافا : فمنهم من كانوا فى باطنهم مع المعتزلة فى مسألة خلق القرآن ، بيد أنهم لا يريدون أن يصل هذا الكلام الى العامة ، اذ أنهم ليسوا أهلا للنظر ، ويرون أن يسـد

هذا الباب سدا ، حفظا لدين العامة ، وهم السواد الأعظم فى الامه • ولذلك فهم كانوا يجيبون اذا سئلوا ، بأن القرآن كلام الله ولا يقولون انه مخلوق ولا أنه غير مخلوق • وقد زادهم ايمانا بهذا انها مسـألة لم تثر فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام والصحابة والتابعين •

من ذلك ما رواه الرواة أن الواثق أتى بشيخ فى حضره ابن أبى دؤاد، فسئل : ما تقول فى القرآن ؟ قال الشـيخ لابن أبى دؤاد : لم تنصفنى ولى السؤال قيل : سل • قال : هل هذا شىء علمه رسول الله صلى الله عليـه وسلم وأبو بكـر وعمر والخلفـاء أم شىء لم يعلمـوه ؟ فقال ابن أبى دؤاد : لم يعلموه • فقال الشيخ : سبحان الله،شىء لم يعلموه أعلمته أنت ؟• وفى رواية أنه أعاد عليه السؤال ، فقال ابن أبى دؤاد : علموه ولم يدعوا اليه • فقال الشيخ : هل وسعهم ذلك ؟ قال : نعـم قال الشيخ • أفلا وسعك ما وسعهم ؟

ومن أجل هذا كره الامام ابن حنبـل ان يتكلم أحد فى المسـألة بنفى أو اثبات • فقد روى انه قيل للكرابيسى : ما تقول فى القـرآن قال : كلام الله غير مخلـوق • فقال له السـائل : فما تقـول فى لفظى القرآن ؟ فقال : لفظك به مخلوق • وحين روى هذا للامام ابن حنبـل قال : هذه بدعـة •

ويروى أن السائل رجـع الى الكرابيسى ونقـل له قول أحمـد واستنكاره فقال الكرابيسى : اذن ، فتلفظك بالقـرآن غير مخلـوق ، فرويت لأحمد فأنكر ذلك أيضا وقال : هذه بدعة • وهذا يدل ـــ كمـا يرى السبكى فى طبقات الشافعية ـــ على أن الكلام فى أصل المسـألة غير مطلوب ، عند السلف الذين لم ينكروا أن اللفظ حادث وانمـا كان سكوتهم عن الكلام فى ذلك لا عن اعتقاده •

ومن المعارضين قوم أداهم السخف الى القول بقدم القرآن حتى المكتوب فى المصاحف ، والملفوظ به فى ألسنتنا ، وهو دليل على ضيق النظر وضعف العقل ، ولم ينسب هذا القول الى ابن حنبل أحد أبدا .

والسؤال الذى ينبغى أن نسأله بعد هذا العرض : أى الحزبين كان على حق .

ان المعتزلة — ومعهم الحكومة — أخطأوا خطأين :

الأول : انهم أرادوا اشراك العامة فى مسائل علم الكلام ، والعامة أبعد الناس عن فهمه ، وهو اللم الدقيق الذى تاهت فيه عقول الخاصة من الفلاسفة وأمثالهم . فكيف يريد المعتزلة أن يفهم العامة صفات الله وهل هى عين الذات أو غير الذات ، وأن الرؤية تقتضى أن يكون المرئى محدودا فى مكان ؟ لقد قبل النبى عليه الصلاة والسلام من الجارية أن تعتقد أن الله فى السماء وأن تشير اليه . لأن عقلها لا يتيح لها أكثر من ذلك ، ولم يحاول أن يفهمها انه ليس فى مكان لذلك فقد كانت محاولة المعتزلة افهام العامة ما هو أدق من ذلك تكليفا بما لا يطاق .

الثانى : « أن دفع المعتزلة الحكومة الى التدخل بسلطانها وسيوفها وسياطها وجنودها وولاتها فى هذه المسألة ، كان من الخطورة ، بحيث أرادوا أن تكون مجالسهم للجدل والمناظرة ، كمجامع القساوسة يقررون فيها ما يشاءون ، ثم يرغمون الناس على القول بما قرروا .

وقد دل عملهم هذا على الجهل بنفسية الشعوب : وبتاريخ انتشار العقائد . فالتعذيب لا ينشر العقيدة ، بقدر ما ينشرها الاقناع والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . وقد غالى المعتزلة حين اعتبروا السكوت عن القول بخلق القرآن اشراكا . فالاسلام عماده « لا اله الا الله محمد رسول الله » فمن قالها عصم دمه ، وحسابه على الله .

والغريب فى الأمر حقا أن يكون المعتزلة ، دعاة الحرية الفكرية وسلطان العقل ، مصدر هذا التعذيب ، وأبعد عن البصر بعواقب المحنة ولكنهم كانوا عقليين متزمتين فى عقليتهم ، رأوا أن واجبهم أن يحملوا من لا يعقل على قول من يعقل ونسوا أن العقول متفاوتة ، وأن القول بسلطان العقل يقضى بأن نلتمس العذر لمن ضاق عقله،ونسمح له بالسير فى حياته ، وفق عقله الضيق ، ما لم يكن فى هذا اضرار بمصلحة عامة •

ان محنة خلق القرآن ، تجلت عن صراع بين العقل وبين العاطفة، كان عقل المعتزلة حادا جافا فلسفيا ، يريد أن يفرض ما يراه على العامة فرضا ، بل يريد أن تكون الأمة فلاسفة تعرف الجوهر والعرض والكمية والكيفية والوحدة والتعدد ، والمكان والجهة ، ولا يمكن القطع بأن ذلك فى مصلحة الانسانية •

وكان المعارضون شعبا يؤمن بقلبه ، لا بعقله ، ولا يستطيع أن يفهم ما يقوله المعتزلة فى صفات الله ، وزاد من كراهية الشعب مناصرة الحكومة أياهم بما أوتيت من مظاهر القوة • والناس كارهون دائما مثل هذه المظاهر من أعماق قلوبهم ، ويعتبرون الخارج عليها بطلا ، ويعظمون رجال الدين يوم يبتعدون عنها ، ويزهدون فيها •

وقد أحس المعارضون من طريق الالهام أن القول بخلق القرآن أمر لا يتفق والدين فى شىء ، وبخاصة حين رأوا السلطة تؤيد ذلك •

والعقلاء من المحدثين فطنوا الى هذا ورأوا أن العامة اذا تفلسفوا الحدود واذا قلنا لهم أن القرآن مخلوق ، فذلك يساوى أنه يصح الرد عليه ، بل يجوز الاتيان بمثله ، وتصح مخالفته ، ويمكن للعقل أن يأتى فى التشريع بخير منه ، الى غير ذلك من المعانى الغامضة التى قد تجول فى أنفسهم ولا يستطيعون عنها تعبيرا •

لذلك رأى هؤلاء العقلاء من المحدثين أن الكلام فى نفس الموضوع لا يصح لا بالنفى ولا بالاثبات ، وعبروا عن ذلك بأن الكلام فيــه بدعة حتى امتنعوا أن يقولوا ما هو ظاهر بالبداهة لا ينكره عاقل ، وهو أن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ، والحروف والورق فى المصاحف ، مخلوقة .

من هنا تلاقى عقل العقــلاء من المحدثين ، مع عواطف العــامة وكونوا جبهة واحدة ، وزادهم قوة أن الجنود والســلاح ليست معهم وأن العذاب واقع عليهم ، وأن فضيلة التضحية تظهر من جانبهم وهذا ما أعلن عنه كبراؤهم كابن حنبل وأحمد بن نصر ، والبويطى اذ كانت أقوالهم جميعا متشابهة تدل على أن ايمان العامة فى عنقهم ، وان الاقرار بخلق القرآن هزيمة للشعب ولايمانه ، وشعور بخذلان الدين .

ولقد كوفىء أحمد بن حنبل من جمهــور المسلمين مكافأة تتقاصر عنها مكافأة المأمون والمعتصــم والواثق لابن أبى دؤاد . وحين مات أحمد بن حنبل ، قال فيه القائل :

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة ... وبحب أحمد يعرف المتنسك
واذا رأيت لأحمــد متنقصــا ... فاعلم بأن ســتوره ستهتك

ويصف عبد الوهاب الوراق جنازة ابن حنبل فيقول :

« ما بلغنا أن جمعا كان فى الجــاهلية والاسلام مثلــه ، حتى أن المواضع التى وقف فيها الناس مسحت ثم حــزرت ، فاذا هى نحو من ألف ألف وحررنا على السور نحوا من ستين ألف امرأة ، وكان الناس فى الشوارع والمساجد حتى تعطل بعض الباعة وحيل بينهم وبين البيع والشراء وقيــل فى عدد المصلين عليه أنهم كانوا نحــو ألف وثلاثمائة ألف سوى من كان فى السفن » .

والى جانب هؤلاء العقلاء من المحدثين المعارضين كانت طائفة ضيقة العقل لا يمتنعون عن الكلام فى القرآن : ولكنها تقول بقدمة حتى المكتوب والمفروظ وربما دعاهم الى ذلك انهم رأوا الأئمة الكبار كابن حنبل يعارضون المعتزلة ، فلم يفهموا سر معارضتهم ووجهة نظرهم ، فظنوا أن المعتزلة يقولون بخلق القرآن لذا وجب أن يقولوا بقدمه فى كل مظاهره .

ويلاحظ الأستاذ أحمد أمين « أن ما نقل من المناظرات الينا كان ضعيفا سطحيا ، اذ لم يتعرض المتجادلون لجوهر المسألة ولا أثاروا حقيقة المشاكل،ولا برهنوا البراهين العقلية على وجهة نظرهم »(٣٧) .

ويؤكد ذلك ، حين نوازن بين هذه المناقشات التى حفظها الرواة لنا ، وبين الكتب التى صدرت عن المأمون ، فاننا نجد كتب المأمون قد تعرضت لجوهر الموضوع ، وأبانت وجهة نظره ونظر حزبه ، بخير ما تعرضت له المناظرات . ولعل السر فى ذلك أمران :

الأول : أن المأمون قد لحق بربه أثناء المناظرات ، وخرج من ميدان المناظرة وقد كان من أكبر أصحابه عقلا وأقدرهم على الجدل والاقناع ومن أوقفهم على حقيقة الموضوع .

والثانى : أن المناظرة كانت بين المعتزلة وخصومهم الذين هم محدثون لا يرون علم الكلام ولا يشتغلون به،ولا يقرأونه ، ولا يتعلمون مصطلحاته وقواعده ومبادئه،لذلك كان المعتزلة اذا ناظروهم فى شىء من ذلك قال المحدثون : لا نعلم شيئا مما تقولون ، كما حدث مع ابن حنبل ، فيضطرون الى المجادلة فى النصوص فقط ، وفى المنقول لا المعقول .

---

(٣٧) ضحى الاسلام جـ ١٩٥/٣ .

وهذه دائرة ضيقة لا تتسـع لبيان الأسباب الخفيـة والدواعى العقليـة .

هذان هما الجانبان الأساسيان ، فى محنة أو مشكلة خلق القرآن رأينا كيف وظف الجانب النظرى ، السلطة فى سبيل الوصول الى أن يصير القول بأن القرآن مخلوق — وربما مذهب الاعتزال كله — وهو المذهب الرسمى للدولة ، كما أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة .

لكن العنف يولد الكراهية ، كما أسلفنا ، والعامة تكره أن تجبرها السلطة ، على رأى أو مذهب أو دين .

ولقد أنبأتنا التجارب بأن كثيرا من المذاهب التى احتضنتها السلطة وحدبت عليها ، لم يكن لها عند العامة نصيب .

ولعله بعد بسط المشكلة قد آن الآوان ، لأن نحال نص الأشعرى فى اللمـع .